

المغرب الأوسط ملاذ المورسكيين (قراءة في أهم المصادر الأجنبية)

أ/ نصيرة بن دمراد

قسم اللغات الأجنبية

كلية الآداب واللغات - جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

تقديم:

يعود المورسكيون إلى الذاكرة، هذه الأقلية التي بقدر ما كانت معروفة أصبحت في طي النسيان، مشكلين لغزا لم يتم فكّه من قبل المؤرخين المحدثين.

كانوا أعلام العصر الحديث، ولقد كانوا هدفا و أبطالا في الوقت نفسه، كانوا هدفا لأنهم كانوا الشغل الشاغل لمحاكم التفتيش بعد اليهود، وأبطالا لأنهم وقفوا صامدين قدر الإمكان أمام محاكم التفتيش؛ لقد فرّ البعض منهم من مراقبة محاكم التفتيش أما البعض الآخر فأصبح ضحية بعدما تم طردهم نهائيا من إسبانيا، فكل آلام السلطة كان سببها المورسكيون، وكانت هذه الأقلية سببا في المشاكل الموجودة في البلاد والتي كانوا يهابونها لأسباب عديدة.

- كان المورسكيون يمتلكون مفاتيح جميع الحرف الأساسية (اليديوية).
- وعلى علاقة مع الأتراك.
- فهم اليد العاملة المثمرة والعائدة بالكثير من النفع لأراضي طبقة النبلاء.
- بسطاء ودؤوبين ومتواضعين وملتحمين "متضامنين".

كل هذه الامتيازات خلقت نوعا من الغيرة والحقد ليس فقط في الوسط الملكي وإنما حتى في الكنيسة الكاثوليكية، وبالأخص عند المسيحيين الأصليين، وفي محاولة لإلغاء جوهر ثقافتهم كسروهم ودفعوهم للقيام بسلوكات متطرفة كالثورة والانتفاضة، ما خلف الكثير من الضحايا وخاصة المسلمين منهم، لقد حولهم الظلم إلى شعب متمرد ومنغلق على نفسه أكثر فأكثر، مما دفع بالمؤرخين الدارسين للقضية المورسكية للقول بأن سبب طردهم هو عدم تمكنهم من الاندماج في المجتمع الإسباني، فبالرغم من عدم قبولهم في المناطق المجاورة للبحر المتوسط استطاعوا أن يلحقوا إلى البلدان الشقيقة المسلمة أو إلى بلدان أخرى بعيدة، بعيدة جدا بما فيها العالم الجديد "أمريكا"، إذن لماذا العالم الجديد؟

لقد رغبا في الفرار من المحنة التي كانوا يعيشونها كل دقيقة وعلى مرّ الأيام، ابتعدوا قدر الإمكان عن متعصبي الكنيسة الذين اضطهدهم وحاكموهم بهتانا، لقد رغب المورسكيون أن ينسأهم الناس وأن ينسوا آلامهم ومعاناتهم فقدموا لأنفسهم فرصة إعادة بناء حياة سليمة خالية من المشاكل والضعفوط طامحين بذلك إلى العيش بطمأنينة.

أما مراوغتهم للمراقبة البحرية لم تكن ناجحة تماما فبعضهم تم توقيفه من قبل المليشية البحرية أما الكثير منهم فنجحوا في الذهاب إلى العالم الجديد بعد دخولهم في السفن المبحرة بين القارتين خفية، ولهذا أشارت محاكم التفتيش، رغبة في تقديم إحصاءات عن المنفى بعد التحقيق إلى وجود عشيرة موريسكية في أمريكا.

واستقبل الموريسكيون برحابة صدر من طرف الأتراك و بلدان الشرق الأوسط، وفي شمال إفريقيا، كان المغرب الأوسط مملكة الزيانيين، المحتلة من طرف التاج الإسباني وعدوهم اللدود الإمبراطورية العثمانية، منفى لدى الموريسكيين من طرف الحاكم فيليب الثالث. وهذا الأخير ومستشاروه وبعد تفكير عميق قرروا إبعادهم إلى منطقة بربرية لأن السفر كان أقل كلفة بالنسبة للملكة، وفكروا في إبعادهم إلى الشمال أبعد حد عن الأراضي المسيحية إلى تركيا البلد الموالي للمورسكيين غير أن تكلفة النقل كانت جد باهظة؛ فترجعوا عن هذا القرار.

وبهذا يمكن الاستنتاج بأن الموريسكيين الذين توجهوا إلى تركيا انتقلوا إلى هناك تحت نفقتهم الخاصة وفي أغلب الأحيان لم يتلقوا أي ترخيص من السلطات ومختفين من مراقبي الحدود.

لقد وصل عدد معتبر من هؤلاء الأقلية المهمشة إلى أرض المغرب لأنهم كانوا على علم بوجود أجدادهم هناك، ومنذ زمن طويل، والجدير بالذكر هو أن الأندلسيين كانوا وعلى مرقرون مختلفة على علاقة مع المغرب الأوسط وخاصة مع تلمسان فترة حكم مملكة بني عبد الواد، فلقد وجدت حضارتهم الخصبة مكانتها في المملكة.

كانت إقامة المورسكيين مكثفة نظرا لتطور المشاكل المترتبة عن استرداد الإسبانين لإسبانية، فأصبحت إقامة الكثير منهم نهائية ودائمة.

كل هذه الأسباب دعت أكثر العائلات من المورسكيين للاستقرار في مجتمع لطالما رحب بهم، أما الذين اضطروا إلى المنفى في أوائل القرن السابع عشر وتحديدا عام 1604 فكانوا يهابون مما سيلقون هناك.

لقد سال الكثير من الحبر عن الاستقبال السيئ الذي لقيه المورسكيون من قبل القبائل الرحل من جهة والإبادات الجماعية التي تعرض لها المسلمون من قبل الإسبان، فكلاهما سعى

لهدف واحد هو سلب ثرواتهم خلال رحلتهم برا وبحرا ، كانت ثرواتهم المزعومة سبب المشاكل التي تعرضوا لها ، حيث كانت الكراهية والجشع تسودان في أوساط الإسبان.

والجدير بالذكر هو عدم سماح المملكة الإسبانية للمورسكيين بأن يغادروا إسبانية بممتلكاتهم وكان هذا بيت القصيد. حجزت الدولة ومحاكم التفتيش والمسيحيون الأصليون كل ثروات الموريسكيين ، أما الشيء القليل الذي تبقى لهم فتم نهبه وسلبه من طرف ربان السفن أثناء إبحارهم فسرقتهم ونكلوا بهم ورموهم في عرض البحر دون ترك أي آثار لهم. ومما يجب ذكره هو أن هؤلاء الموريسكيين تكفلت الدولة الإسبانية بنقلهم.

فبمجرد وصولهم إلى ميناء وهران - كانت مستعمرة إسبانية آنذاك - شاع عنهم بأنهم أشخاص أثرياء وبأنهم يريدون الاستقرار في تلك المنطقة ، وكان هذا السبب الوحيد "امتلاكهم للذهب والأموال" الذي جعلهم ضحية هجومات من سلب لأموالهم وقتلهم.

كان للكاردينال خيمينيز دي ثيسنيروس عندما استولى على مدينة وهران هدف مزدوج؛ فمن جهة أراد تنصير هذه المنطقة المسلمة ومن جهة أخرى أراد إبادة المسلمين الذين طردوهم من إسبانيا فلجؤوا إلى هذه الأراضي.

فبالرغم من هذه الأحداث - البيانات المضللة والديماغوجية لرجال الكنيسة - استقر الموريسكيون في المغرب الأوسط ، وتحديدًا في المنطقة الغربية ، في مدينة مستغانم وتلمسان فندرومة ، وكذلك وسط الجزائر العاصمة ثم في منطقة بجاية والبليدة وشرشال ، وتتس.

ومن الملاحظ أنها اختارت العيش في الساحل مما يفسر حينئذٍ لبلدهم الأصلي والذي لطالما كان أملهم الوحيد في العودة إليها ، وعلى طول البحر المتوسط هذا البحر الذي قادهم إلى هذه الأراضي فمن السهل عليهم أن يلقوا نظرة على أرض أجدادهم يتخيلون مدنها وقراهم التي غادروها ، فالبعض منهم حافظ على مفاتيح منازلهم علّ وعسى يعودون إلى هناك يوما ما.

كانت تلمسان المدينة الوحيدة التي استقبلت هؤلاء المغتربين والتي كانت تبعد عن الساحل بـ 60 كم ، فاقنعوا وحاولوا الاقتناع بأن بقاءهم في تلمسان دائم ولا رجعة فيه ، وهذا أيضا يفسر أيضا اختيار المورسكيين الفلاحين السكن بنواحي المدينة.

ومما يجب ذكره هنا أن المسلمين معروفون بكرمهم واستقبالهم للضيوف وإكرامهم الذي يعد واجبا في تقاليدهم حين يأتيهم ضيف فلن يرحل إلا بعد قضائه ثلاثة أيام؛ فإذا ما أراد المغادرة فله ذلك ، وإذا أراد البقاء فعلى الرحب والسعة من طرف الجميع.

ومن المؤكد بأن المورسكيين الذين اختاروا العيش في الريف أو في تلال المدينة بمحض إرادتهم وليس لأنه لم يرحب بهم في المدينة "وسطها" إنما أرادوا الاقتناع فعلا بأن إسبانيا خانتهم وطردتهم بعيدا عن أراضيهم؛ ثم أرادوا أن يكونوا لأنفسهم مسكنا أو مجتمعا يحسون فيه بأنهم في مسقط رأسهم، هذه الأرض إسبانيا التي رثوها بمرارة وبكثير من الألم. هذا ما تأوه به الملك بوعبدل لدى خروجه من حبيبته غرناطة بعد استسلامات 1491؛ فاتجه نحو المنفى متحسرا لتركه مملكته غرناطة أرض أجداده ومسقط رأسه.

- لقد اعتنى سكان هذه المناطق: أولاد بلحاج والوريط وعين فزة والعباد بالأراضي الموجودة هناك أين حافظ السكان بقوة على تقاليدهم ولم يسمحوا بالاختلاط مع سكان آخرين عكس ما يحدث حاليا ولا سيما مع التقدم الاجتماعي وكل التغيرات، فكل التجاوزات أصبحت متاحة وما لم يكن مسموحا به من قبل أصبح مقبول حاليا.

- لقد جاء هذا التطور متأخرا مقارنة مع المجتمعات (عشائر) أخرى غير أنه حدث فعلا بالرغم من تمسكنا بمبادئ ما فتئت أن تغيرت وهذه الخصوصية لطالما بحث عنها الرحالة الغربيون بيننا.

- لقد عرفت تلمسان خلال الاستعمار الفرنسي بكرزها، ففي كل سنة وخلال شهر ماي يحتفل سكانها بعيد الكرز حيث كان يسمى بحب الملوك، والجدير بالذكر هنا هو أن الوريط والذي أشرنا إليه سابقا وعلى وجه التحديد في إقطاعية أولاد سيدي بلحاج كان كله منطقة مكسوة بأشجار الكرز وكان منظرا في غاية الروعة خلال فصل الربيع.

أكد لكوك خلال الاحتلال الفرنسي لمدينة تلمسان بأن هذه المناظر كانت تروق الجنود، فالمناظر الجميلة والحقول والبساتين الخضراء كانت تأسر الجنود:

« Dans aucune autre partie de l'Algérie la végétation ne présente autant de joie et de fraîcheur. Les eaux y sont belles et abondantes, le sol y est d'une admirable fertilité. La montagne présente plusieurs ressauts qui forment autant d'étages couverts de terre végétale où vivent les plantes de l'Europe et celle de l'Afrique mêlées, séparées, mêlées de nouveau suivant l'élévation et la disposition des lieux » [1]

ويضيف ليباس:

« L'industrie, peu avancée, consiste en tanneries, en fabriques de poudre de guerre, et en sellerie, elle compte aussi quelques armuriers et cordonniers ». [2]

- حدث هذا خلال أكثر من قرنين فترة وجود المورسكيين في هذه الأماكن لم تتغير الطبيعة الفتانة في تلمسان عبر مرّ السنين فتجد فيها دائما مياهها الصافية وينابيعها العذبة وأشجارها المظلة وزقزقة عصافيرها كما أكده الرحالة وعالم الطبيعة الفرنسي دي فونتين

في القرن السابع عشر والذي كان مولعا بمناظرها الطبيعية وخاصة بمياهها التي شكلت جزءا كبيرا في تاريخ هذه المدينة وضواحيها.

- ينحدر المورسكيون الذين قطنوا بتلمسان من المناطق التالية:
- منطقة شرق إسبانيا وهما فلنسا وأليكانت ونوفلدة.
- منطقة الأندلس وقرطبة وغرناطة.
- منطقة القشتال وتوليدو.

ينتسب سكان تلمسان إلى ثلاث سلالات:

- الكرغليين ثمرة التزاوج بين النساء الأصليين لتلك المنطقة والأتراك.
- الحضر الأندلسيين والمورسكيين الإسبان.

- السكان الأصليين من قبائل البربر والذين استقروا في عهد بني عبد الواد.

إن مصطلح "حضر" من أصل عربي "حضارة" ولقد أكد لنا أحد مؤرخي مدينة تلمسان خلال إعدادة لمخطوطته المتعلقة بأصل العائلات التلمسانية قائلًا أو متحدًا عن المسلمين القادمين من الأندلس:

« Je crois qu'ils ont représenté le sens élevé du mot Hadar, Hadara ou la vie dans la cité, élevée à son plus haut degré ». [3]

"أعتقد بأنهم كانوا يمثلون أسمى معاني كلمة حضر، الحضارة أين بلغ العيش في المدينة أعلى مستوى من الرقي"، وهذا ما أكدته دينيز براهيمى بخصوص المورسكيين القاطنين في مدينة الجزائر.

استقر الأندلسيون الأوائل بالقرب من مقر المملكة الزيانية شرق قلعة المشور فكانت تسمى هذه المنطقة أثناء الاستعمار الفرنسي "شارع سيدي بلعباس" ولقد فتحوا أيضا ورشا مارسوا فيها حرفا يدوية مختلفة منها صناعة الجلود والحريز والصوف والتطريز وصناعة المجوهرات، لقد تمركزوا في القيسارية - السوق الذي يحوي محلات اليهود والمسيحيين وكذا المسلمين.

لم يكن الكره قد بلغ ذروته في عقول هؤلاء المغتربين للمسيحيين في تلمسان كما كان في مدينة الجزائر أين وجد المورسكيون سبيلا لتطبيق قانون تاليون "العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم".

كان لهم ذلك عن طريق البحرية التركية فكانت القرصنة البحرية أحسن وسيلة لتلبية احتياجات وصاية الجزائر وبما أن الزعماء الأتراك ليس لهم ما يخشوه من الحرب فرحبوا بالقرصنة وقرروا القيام بذلك، وفعلا، عدد من هؤلاء المنفيين تجندوا في البحرية التركية وكان هدفهم الرئيس ترويع السواحل المسيحية والعودة بغنائم تسمح لهم بمنافسة البلدان المجاورة مثل إيطاليا والعدو الأبدي إسبانيا.

لقد ازدهرت تجارة الرقيق طوال الفترة الحديثة من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر، وكانت مصدرا للثروة، وإدخال العملة في قضية تبادل الأسرى.

أما المورسكيون الأرغون- طاغارينوس- فهم الذين تم إجلاؤهم من السفن التركية واستقروا في العاصمة، قيل بأن البعض منهم اهتم بتجارة الرقيق وكان أكثر قسوة في معاملة السجناء المسيحيين:

« Les Turcs sont de valeureux jaloux de leur loi et les Maures sont les plus grands ennemis des chrétiens ». [4]

سوق الرق أصبح صناعة حقيقية في جميع أنحاء ساحل شمال إفريقيا.

أسر الأب خيرونيومو غراثيان في تونس خلال القرن السادس عشر، وفي شهادة له قال بأنه وفي غضون عشرة أشهر كان أكثر من 1700 مسيحي أسيرا نقلوا إلى عاصمة الحفصيين وهذا ما شكل خطرا داهما في أوساط البلدان المسيحية فلقد كانت المداهمة ناجحة وفعالة بمساعدة بعض السفن التركية، ستة في الجزائر العاصمة، ستة في تونس وبنزرت واشتاتان في طرابلس.

كراهيتهم للمسيحيين وخصوصا للإسبانيين كانت موجودة وجروهم لم تكن قد اندملت بعد، فالانتقام قضم قلوبهم ومنهم شجاعة وإرادة لا مثيل لها.

فالمطردون من إسبانيا عامة ولدى وصولهم كانوا منحطين نفسيا نظرا للمعاناة والانتكاسات التي شاهدها في إسبانيا. كانوا يحاولون نسيان ما حدث لهم هناك وإبقاء الجانب المفرح فقط، والأيام والذكريات السعيدة التي عاشوها في أراضي الأندلس أرض أجدادهم.

إن المغتربين الذين أرادوا نسيان حياتهم المعيشة والذين وصلوا إلى السفن التركية استقروا في الجزائر العاصمة وأسسوا لأنفسهم طبقة اجتماعية جديدة، فاهتموا بجميع المجالات بما في ذلك تركيب قنوات المياه التي بدأت بالتدفق في جميع بناييع المدينة.

قدمت المؤرخة دينيز براهيمي لهذه الطبقة والتي يعد منها اسم طبقة البرجوازية وفسرت هذه التسمية بوصف لطبائع هؤلاء الناس، ذوقهم الرفيع في انتقاء ملابسهم، وخبراتهم وتمسكهم بعبادات أجدادهم ورقيقهم الذي كان دليلا على حضارة متينة وخالدة لم تزل بالرغم من تعرضها لمعوقات وعراقيل عدة، وقد وصف ديبغو دي أيبو من جهته متحدثا عن تركيبة سكان العاصمة مشيرا بذلك إلى مسلمي إسبانيا قائلًا:

« Ces Maures sont blancs et bien proportionnés, comme tous ceux qui sont originaires d'Espagne ; ils exercent un grand nombre de professions diverses, sachant tous quelque métier ». [5]

وأضاف قائلًا بأن أصل المورو "المسلمين" كان مختلطا فمنهم الكتالون والأراغون وأندلسي غرناطة.

أما الكتالون والأراغون فسموا بالمودخاريس، وصلوا عبر الميناء الفرنسي بمرسيليا غير أن هذا خطأ فالكتالون فقط كانوا المعنيين بالأمر.

أولئك الذين فضلوا أو حبذوا طردهم تحدثوا عن خمول الموريسكيين وحبهم للكسل وال الفراغ. فكانوا يفضلون التظلل تحت الأشجار والنوم طيلة النهار وهذا كما قيل فقط لنفي المحاسن التي كانت لدى المورسكيين في تنظيمهم لحياتهم اليومية.

لقد نفى جيروم منزر ما قيل عن المورسكيين لأنه رأى بأم عينيه العمل المتقن والدؤوب لمسلمي الأندلس قائلا:

« Ils sont très ingénieux pour construire des conduites d'eau ... ils sont très efficaces pour la culture de la terre et des champs ... et ce sont des gens de parole, justes et fidèles ». [6]

نفث أو أنكرت كلمات هذا الرحالة ما لفق للمورسكيين في القرن الخامس عشر؛ فكتاب عصره وصانعو القرار آنذاك لم يكن شغلهم الشاغل سوى التخلص من المورسكيين في أقرب الآجال، هذه العشيرة التي ضايقتهم بطرق عيشها.

بلغ احتقار الإسبان للمورسكيين ذروته وذلك من خلال المعاملة السيئة للمسيحيين الأصليين والكهنة والأساقفة الذين لم يترددوا ولو للحظة لإهانة النساء المورسكيات، لم يفوت المورسكيون ولا مناسبة لإهانة المعتقدات المسيحية وسب قديسيهم وملوكهم:

« La reine Isabelle est en enfer sous les juifs, parmi ceux qui n'en sortiront jamais, écrasée entre les silex qui lui triturent la tête, pour avoir fondé et créé cette terre ». [7]

- تم تأسيس محاكم التفتيش من طرف إيزابيلا الكاثوليكية مع موافقة أب الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت يعني خلال القرن 15 تحت نصائح الكاردينال والحاشية. إن المورسكيين الجدد والذين فضلوا العزلة أقاموا في نواحي العاصمة فخلقوا جنانا زراعية ساعدتهم على ذلك خصوبة التربة والوديان المحيطة بها ومن ذلك سهول متيجة التي تعد مناظر خلابة من مزارع للكروم وبساتين وأشجار برتقال وليمون وأشجار أخرى من جميع الأصناف:

« Les roses y fleurissent toute l'année au milieu des plantes potagères les plus variées ... dans cette vaste pleine, du blé, de l'orge, des fèves, des melons, des concombres et toute sorte de légumes ». [8]

كانت العاصمة الجزائر المسماة بمدينة القرصنة ملاذا أو مركزا للمساعدة والمؤونة فاليد العاملة متوفرة هناك وكانت مركز تجارة وتسويق الغنائم فالأشخاص الذين كانوا مولعين بالمغامرات في البحر كانوا كثيرا، إن تجارة بيع وشراء الأسرى كوَّنت مركزا ومكاسب مالية هائلة وكذا وصول أساطيل من جميع أنحاء المناطق المسيحية لعقد صفقات تجارية وفي هذا الصدد أقرّ تاجر من جنوة بأن التجارة في العاصمة حققت أرباحا قدرها بـ 30 بالمائة.

تلقت مدينة مستغانم الواقعة شرق مدينة وهران بحوالي 80 كلم حصتها من المنفيين فلم يصل الجميع إلى وجهتهم لأنهم كانوا ضحايا أماكن حظرها "مواطنوهم". فالعديد من هؤلاء قضوا نحبهم على طول الطريق أما الآخرون فواصلوا سيرهم نحو العاصمة الجزائر والبقية وصلت إلى المدينة، كانت وضعيتهم جد سيئة لأنهم تعرضوا للسرقة والنهب وهذا لم يمنعهم من تسوية أوضاعهم وتنظيمها.

ولقد اكتسبت مدينة مستغانم بذلك - باعتبارها منطقة زراعية خصبة - سمعة طيبة ومكانة مرموقة نظرا لخصوبة أراضيها بالإضافة إلى وفرة القمح وأشجار الفاكهة وخاصة البرتقال.

لقد جعل الأتراك مدينة مستغانم قاعدة لمحاربة الإسبانيين المالكين لوهران بالإضافة إلى جعلها قاعدة مؤونة لقواتهم، والجدير بالذكر هنا هو أنه في أرجاء هذه المدينة - غرب الجزائر - لقي الكونت دي الكاوديتي حاكم محافظة وهران حتفه بعد قيامه بعدة محاولات لاحتلال مستغانم وانهمزوا كليا أمام الأتراك والسكان الأصليين لهذه المدينة.

أما مدينة ندرومة - الواقعة شمال مدينة تلمسان - استقبلت أيضا عائلات بأكملها غير أن هؤلاء قدموا عبر المغرب الأقصى لقرب مدينة ندرومة من حدود المملكتين المرينية والزيانية فكلاهم أبناء عمومة من أصل بربري ورحل مستقرون.

إن هندسة المنازل والحمامات والمسجد الكبير من طراز عربي مورسكي خالص ولا يزال هنا النمط المعماري خالدا داخل بيوت العائلات الكبيرة والتي أصولها من ندرومة نسخة طبق الأصل من البيوت الأندلسية الداخلية بفنائها، البهو داخل المنازل مع نافورة مياه صافية والتي تلطف الهواء خلال الطقس الحار، أما الجدران فمغطاة أو مزركشة بالفسيفساء التي تصل إلى قمة شخص ما.

فالعائلات الغنية لديها طابق أرضي وطابق وشرفة، أما السقف فمفتوح وبهذا تطل غرف الطابق الأول على الفناء الداخلي أما فيما يخص الشرفة فلها استعمالات كثيرة: أولا: تجفيف الفواكه لفصل الشتاء، ثانيا: استنشاق الهواء مساء أو ليلا صيفا، ثالثا: استقبال الضيوف لمناسبات مختلفة كحفلات الزفاف والختان في حالة حضور أشخاص كثير.

صممت المنازل داخليا بعناية، ففي فصل الصيف باردة خاصة في الطابق السفلي. فالأزقة التي تفصل بين صفوف المنازل المسماة بالعربية (درب) ضيقة كما هو شأن الممرات في المنازل الأندلسية نفس ميزة أزقة مدينة تلمسان والعاصمة وبجاية فجميعها ضيقة ومرصوفة بالحصى.

إن مدينة وهران قديما كانت مدينة مرفئية، كانت ميناء في عهد بني عبد الواد نشاطها مهم جدا فهي نقطة خروج ودخول البضائع من المملكة.

بعد أن استولى الإسبان على مدينة وهران سنة 1509 تم نقل طرق خروج المبادلات التجارية البحرية إلى هاريزقول، رشقون حاليا، وإلى هون هنين حاليا.

أما هذا الميناء فدمر خلال منتصف القرن السادس عشر من قبل سيسنيروس بعد أن احتل من قبل الجنود الإسبان.

كانت هنين مدينة صغيرة مزينة بحدائقها وأراضيها المزروعة بأشجار الفاكهة، كان هواؤها منعشا وماؤها صافيا. كانت الحرف اليدوية فيها متقنة تعكس ذوق سكانها الرفيع ومن بينهم الحاخام إفرايم أنكوى، هذا اليهودي الذي فرّ من محاكم تفتيش توليدو بعد ما شهد حرق عائلته بأكملها في "طرف الكنيسة" هذا الحاخام الذي وصل إلى تلمسان عن طريق هنين أين استقطع لنفسه بعض الوقت للراحة من رحلته المرهقة، فاستمتع بوجوده في مدينة هنين وأراد البقاء فيها وفعلا استقر فيها عدة أيام ثم شد رحاله قدما ليرى ماذا يخبئ له القدر مستقبلا.

لم يكن لمدينة وهران الفرصة ومرة أخرى لاستقبال المورسكيين والاحتفاظ بهم لأن الحاكم آنذاك تلقى أوامر صارمة بعدم إبقاء أي مورسكي سواء كان غنيا أم فقيرا باعتبار أن هؤلاء مرتدون ومحتالون ولا يحق لهم أن يستضافوا من قبل المسيحيين الأصليين.

وبهذا فالمباني والهاكل التي اقتصرت على الإسبان كانت من طراز إسباني خالص ومن ذلك: الساحات والكنائس والحصون الخاص بالحاكم والتحصينات دفاعا عن أنفسهم من الخطر الخارجي.

كان على الإسبان حماية أنفسهم لأنهم كانوا يعيشون في جزيرة إسبانية محاطة بقبائل مسلمة تنتظر أدنى فرصة للهجوم على هؤلاء الغرباء الذين جاؤوا من بعيد وسلبوهم أراضيهم.

وما يجب الإشارة إليه هو أن الإسبان الساكنين بوهران أصبح لهم سلوك عدائي فالغزوات التي قاموا بها لتموين شعبهم، خلقت لهم عداوة قبائلهم المجاورة، وقيل بأنهم كانوا يعتمدون في غزواتهم على "موروس دي باز" المسلمين الذين كانوا يرشدونهم ويتجسسون لهم لإنجاح مدهاماتهم.

إن الغزوات أو المدهامات أصبحت مصدر رزق محقق للإسبان فاعتبروها رياضة، وعملية المصادرة كانت أكثر إثارة وأكثر خطورة من اصطياد حيوان متوحش، فكانت الغنائم مادية وكذلك بشرية "عبيد":

« Les Maures et les bêtes capturées dans les sorties étaient vendus publiquement ; les fonctionnaires, la troupe et les habitants se partageaient le produit de cette vente, conformément à certaines règles établies ; une infime partie entraînait dans la caisse du Trésor royal ». [9]

كان البيع علنا للعبيد المسلمين والبهائم المصطادة، أما عائدات البيع قسمت وفقا لقواعد معينة أما العمال والسكان فيأخذون قسما كبيرا ونسبة ضئيلة من المال تعود إلى خزينة المملكة.

ولقد فسر بروديل هذا الحدث مبينا بأن الحياة في المملكة كانت بائسة، أما الجنود فكانوا جوعا طوال السنة أما الحماة فعاشوا تقريبا بالشيء القليل جاهلين تماما ما سيأكلونه اليوم التالي.

ولقد استنكر القائد العام خوسي باييخو خلال زيارة تفقدية إلى وهران هذه الأفعال ولم يوافق على هذه السلوكات فبالنسبة إليه كان من الواجب على الإسبان إنشاء علاقات سلمية مع المناطق الداخلية وسكانها وليس زرع الرعب الذي نتج عن الهلع من أي شيء يحمل اسم "إسباني":

« Les Razzias étaient des Jornadas qui ressemblaient étrangement aux incursions rapides des Tartares dans la Hongrie, la Pologne et autres contrées voisines. Les Espagnols se conduisaient en tout et pour tout comme des Barbares ». [10]

ومع ذلك ورغم كل الاحتياطات التي اتخذتها حكومة وهران ما يزيد قليلا عن 100 شخص فروا من يقظة الحراس واستقروا هناك، وللأسف فلم يكن العدد كافيا لأن يتركوا بعض الآثار في مدينة وهران.

نفس الظاهرة حدثت في شبه الجزيرة الإيبيرية، حال خروج كل للمسيحيين السبيثيين من أرض الملوك من آل هاسبورغ، فر عدد معتبر من هؤلاء الأشخاص من مراقبة المنظمين والقيمين المكلفين بتنفيذ هذه العملية.

فالبعض منهم اختبؤوا بمساعدة القس أو جيرانهم وآخرون فروا إلى بلدان أخرى اختاروها بأنفسهم مخالفين بذلك قرارات الحكومة، نذكر بأن المورييسكيين الأوائل الذين حكم عليهم بالنفي هم الفالانسيون لأن الإسبان كانوا يعتبرونهم الأكثر خطورة وعصيانا نظرا لقربهم من الساحل وعلاقاتهم مع السفن التركية التي كانت تأتي على الأخضر واليابس في قرى "شرق إسبانيا" وتعود بغنائم لا يستهان بها. ونؤكد هنا على السجناء الذين بيعوا كعبيد في أسواق البحر المتوسط، صناعة حققت لهم أرباحا هائلة، أما آخر من غادر الأرض المسيحية القحة كانوا سكان مورثيا، وذلك سنة 1614، كانوا حوالي 15.000 شخصا حطوا الرحال في ميناء وهران وتم إجلاؤهم نحو محافظة الجزائر ونحو أجزاء أخرى من المشرق العربي.

نصت إحدى المعاهدات المبرمة مع داي الجزائر في 12 سبتمبر 1791، قبل أشهر من الخروج النهائي للإسبانيين من مملكة وهران على تدمير المباني العامة والأحصنة التي بنيت منذ سنة 1732 أي خلال الاحتلال الثاني لمدينة وهران لم تنفذ هذه المعاهدة بالكامل وما بقي من مخلفات يتم ترميمه وتجديده خلال هذا القرن.

كانت الموسيقى المسماة الأندلسية والتي تعد انعكاسا لتراثها الثقافي موجودة قبل المورسكيين بفضل العلاقات القائمة في عهد الأمويين والعباسيين.

و مع وصولهم عممت في المغرب الأوسط و كان الحديث عن هذه الموسيقى شائعاً؛ فلقد كانت تعبر عن آلامهم ومعاناتهم وبمساعدة موسيقاهم استطاعوا فتح قلوبهم وتضميد جراحهم، وتأسفوا على أراضيتهم السابقة، فاقتنعوا بوضعيتهم الجديدة ووصفوا وطنهم الجديد والأشخاص الذين استقبلوهم بحفاوة وسرور أحسوا به في حياتهم الجديدة لدرجة أنهم قدروا هذه الموسيقى المكونة من قصائد "الهارين" نظمت عن إلهام أو ظرف عابر وصفت رقي هذه الفئة وكانت مرآة أرواحهم. وصفت الموسيقى الأندلسية طريقة عيشهم ومعاملاتهم اليومية.

تعد مدينة تلمسان مهد الأولياء الصالحين والعلماء والشعراء الذين تكرمت بهم الآداب العريقة ومجدهم الملوك الزيانيون.

فمنذ العصور الوسطى إلى الآن يوجد عدد كبير من الشعراء وكتاب الأغاني الشعبية الذين تسمعهم في الشوارع والمقاهي، فهذه الأغاني لا تنسى أبداً، ترددها الأجيال بكل اعتزاز ودون تغيير.

هذه الكلمات وهذه التراكيب الشبيهة بالشعر الشعبي، هذا الشعر الواقعي الشبيه أيضاً بالشعر المنظوم أو شعر الفن مما يعطي انطباعاً حقيقياً للمشاعر ويعالج القصيدة العظيمة لحياة الإنسان وجميع أحداثه.

أما الشعر الشعبي فيعد موضوعاً شاسعاً أو واسعاً وتتطرق قصائده إلى العقيدة والدين والأساطير والحكايات الشعبية عبادة أو تصوف الأولياء الصالحين وقوة الإيمان والفرح والآلام تارة والحنين تارة أخرى للطبيعة، كما تجد فيها الأخلاق والقيم، ولقد أكد ذلك عبد الحميد حميدو قائلاً: "ما من تكلف أو اصطناع في هذا الشعر فهو عمل الطبيعة في تلقائيتها فتعرض لنا صورة حقيقية للمجتمع... بكل معتقداته الدينية والعادات والذكريات والمشاعر الحقيقية والنزهة". [11]

نجد في تلمسان، العاصمة الإسلامية القديمة، كل ما يحتاجه الشاعر لنظم قصيدته من آثار قديمة شاهدة على تاريخ تلك المنطقة المجيد ومواقع ساحرة وريف مخضر مزهر وغابات جميلة من أشجار الزيتون والكرز والبرتقال والجوز والرمان وشلالات رائعة وينابيع مياه عذبة وصافية تقور منها مياه وغناء العنادل.

خلاصة القول نجد في تلمسان ما للفكر من معنى وكل ما يعلي الذكاء وكل ما يقدم للخيال خصوبة لا تنضب، فكل هذه المدن الحضارية لا تزال تحافظ على عاداتها وتقاليدها الناتجة عن التعايش بين المسلمين الإسبان مع مسلمي المغرب الأوسط وهي تلمسان، وهران، مستغانم، شرشال وتنس والعاصمة فكلها تأثرت بالمساهمات الثقافية والاجتماعية

والاقتصادية والعلمية والفنية التي أثرت في المجتمع العتيق والتي نجدها حاليا حينما تبحث عن أصل وجه اجتماعي ما.

وهذا ما قاله فارنان برودال بخصوص حضارة عادلة لا يمكن لأي أحد التشكيك فيها "حضارة تمثل فن العيش وعادات كثيرة تتكرر":

« Une civilisation est tout un art de vivre, se sont des milliers d'attitudes qui se répètent ». [12]

مراجع:

- [1] LE COCQ, A., L'occupation de Tlemcen en 1836, in R.A. n°89, 1945, p. 645
- [2] LEBAS, P.H. (1845), Dictionnaire de la France, univers pittoresque, T. 12, p. 686
- [3] CHARIF, Ghouti (1993), L'arbre de Tlemcen, imprimerie Sari, Tlemcen, p. 10
- [4] ORDONEZ DE CEBALLOS, Pedro (1616), Historia y viaje del mundo del clérigo agradecido D. Pedro Ordóñez de Zeballos, natural de la insigne ciudad de Jaén, a las cinco partes de la Europa, Africa, Asia, América y Magalánica, con el itinerario de todo él, (1^{ère} éd.), éd. Sánchez, Madrid, p. 37
- [5] HAEDO, Diego de (2004), Topographie et histoire générale d'Alger. La vie à Alger au XVI^e siècle. (2^e éd.), Trad. Berbrugger et Monnereau, Grand Alger Livres, Col. Histoire, Alger, p. 54
- [6] MUNZER, Jérôme (2006), Voyage en Espagne et au Portugal 1494-1495, Trad. Michel Taraye, Les Belles Lettres, Paris, pp. 80-84
- [7] Ceux sont les paroles d'un habitant de Tolède, un certain Jeronimo de Rojas, qui fut jugé par les tribunaux de l'inquisition, au début du XVII^{ème} siècle
- [8] HAEDO, Diego de (2004), Topographie et histoire générale d'Alger. La vie à Alger au XVI^e siècle. (2^e éd.), Trad. Berbrugger et Monnereau, Grand Alger Livres, Col. Histoire, Alger, pp. 230-231
- [9] VALLEJO, général José (1925), Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers el Kébir, trad. et annotation de Jean Cazenave, Revue africaine, n°66, p. 350
- [10] VALLEJO, général José (1925), Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers el Kébir, trad. et annotation de Jean Cazenave, Revue africaine, n°66, pp. 45-47
- [11] HAMIDOU, Abdelhamid (1936), Aperçu sur la poésie vulgaire de Tlemcen, Revue africaine, n°79, p. 1007
- [12] BRAUDEL, Fernand, (2005), Grammaire des civilisations, coll. Champs, (éd.) Flammarion, Paris, p. 164